وقد ودعنا الجبل

بقلم: د. سهير القلماوى

وبدأ الصبح يتنفس هادئا اثر معركة الشمس مع الظلام • لقد انتصرت الشمس ولكن الانتصار جاء اثر جهاد عنيف لم يحس به كائن من الكائنات الاخرى ان كلا منها مشغول بمعركته عن معركة الشمس مع الظلام •

وفى القرية الوادعة فى ريف النوبة حيث عبدت الشمس قبل أن يتطلع اليها انسان فى أى مكان • كانت بقايا مساكن ساذجة فقيرة مجمعة حول نفسها كأنها بتجمعها تتحدى الصحراء القاسية أو مصيرها المحتوم وعلى بعد بعيد وعلى ضفة النهر الخالد الذى كانت الرحلة اليه أشق أعمال الصباح سارت القافلة الحزينة هادئة وديعة نحو مستقبل مجهول مستقبل البلدة الجديدة • وانعكست صورة القافلة على الافق وأصابع الفجر الوردية مازالت تنطبع هزيلة على سماته . وكان الكون كله تغشاه رغم الضوء الاحمر الوليد سحابة حزن وقور قدسى • وبين الافق والقافلة كانت تتراءى بضع نخلات مفردة هزيلة كأنما هى كل جهاد الانسان مع هذه الصحراء الجبارة

العنيدة. بضع نخلات استنبتها الانسان والماء عليه ضنين. نعم الماء سلاحه الوحيد أمام هذه الصحراء .

وكان الغلام الاسمر الذى يقود جمل شيخ القبيلة يغنى غناء هادئا حييا وكأنما هو يتأدب أمام وقار الصحراء وجلال الفجر . انها أغنية رتيبة ، بسيطة النغم ، تتكرر على نغمها القصير كلمات وكلمات ، والنغم يعاد ثم يعاد فى تكرار ورتابة كتكرار الشمس والظلام وتتابع الليل والنهار . انه نبض الحياة كنبض الانسان رتيب رتيب نبض الكائنات الذى لا يحس كنبض الانسان لا يلتفت اليه الا فى أزمات المرض وخوف الموت .

وتوقفت القافلة وتنحنح الشيخ ونزل الراكبون ووقف السائرون وأمهم الشيخ فى الصلاة الشيخ عبد الصمد الوقور ولحيته البيضاء ووجهه الاسمر الغامق هما فى حد ذاتهما ليل ونهار ولكن مابال النهار عند الشيخ عبدالصمد لا يقوى على كسب معركته مع وجهه الاسمر الكالح . انها معركة طويلة .

وعلى هودج غطى بقماش أبيض نظيف كانت أمينة المجذوبة يحرسها عشرة من أشداد الرجال . رجال تسامعوا بأمينة المجذوبة من بعيد فلقد كان حديثها يتردد بين حين وحين فى ناديهم فى القاهرة حيث كانوا يعملون. لقد جاءوا لينقلوا أسرهم من القرية القديمة الى البلدة الجديدة منهم من لم ير القرية منذ أعوام ومنهم من كان يحرص على أن يزورها كل عام وكلهم الوفى والعاق قد استقبله الاهل بترحاب شديد . وكلهم أقاموا له الافراح يوم وصل ولكنها كانت أفراح مختصرة قصيرة تغشاها سحابة حزن دفين سيتركون بيوتهم سيتركون موتاهم هناك على البر الآخر البعيد من النيل سيتركون هواء مشبعا بأنفاسهم وترابا يحمل آثار أقدامهم . أقدامهم الصغيرة يوم دبت أول ما دبت على الارض وأقدامهم القوية الفتية وأقدامهم المرتعشة الفانية كلها لاجيال وأجيال تتابع على هذه الارض .

ولم تكن أمينة تعى شيئا . أمينة السمراء الجميلة التى استقبلت الصباح ذات يوم مشئوم زاد فى شؤمه انه أتى بعد موجة فرح عاتية . فلقد ظلت أمينة تعمل فى الخوص والصوف تنسج لبسطاويسى ابن عمها ثيابا وتعمل

لنفسها ثوبا وتزين جدار غرفة صغيرة. وعلى الجدار كانت أطباق أو حلقات كبيرة زاهية الالوان منسوجة بيد الجميلة أمينة . ولما جاء ابن العم وسلم اباها مهرها وعمت القرية أفراح راح بسطاويسى يطلب بركات الشيخ عبد الصمد . وتمتم الشيخ وبصق فى الارض وحوقل فى الفضاء وتطلع الى السماء . « مشئومة يا بنى مشئومة . بينك وبينها حجاب انزله رب الارباب ليقى زين الشباب من شر الاحباب مشئومة مشئومة » . وعاد الشاب وقد انقشعت الآمال واسلمت سماءها الى شمس محرقة تحرق القلب والفكر والجسد . وتلقت أمينة الخبر أول الامر ذاهلة ثم ولولت وبكت ثم ضربها الوالد الشيخ بعصا خشبية غليظة كان يتوكأ عليها حتى أنقذها منه الاهل والناس . وعاد بسطاويسى الى القاهرة ولم ير فى القرية وأدرج فى سجل العاقين .

ومر عام وعام وجاء ادريس ليخطب أمينة بعد أن رفضت السماء زواجها بابن عمها وتكررت المأساة أن الشيخ عبد الصمد يصر « أنها مشئومة يا بنى مشئومة » وفى المرة الثالثة ظهرت أعراض الجنون وسميت أمينة بالمجذوبة. أمينة الشابة الجميلة التى كان يتمنى كل شاب من القرية أن يظفر بها لجمالها ومهارتها ودأبها على العمل لادبها وعفتها ولمزاياها التى كانت على كل لسان ، محرمة مشئومة . لماذا . لا يدرى أحد . ان الشيخ عبد الصمد لا ينطق الا بكلمات جسام كلمات ترج القرية وتقرر مصيرها .

ولما عرفت القرية بأمر الهجرة جاءت الى الشيخ عبدالصمد تستفتيه فمانع أول الامر. وفرح القوم وقالوا سنموت فى القرية ولن ننتقل منها . وتسامع الناس بقوم يأتون الى الشيخ عبد الصمد من اسوان يتحدثون اليه ويختلون به . ولكن القرية كانت واثقة من الشيخ عبد الصمد . ألم يقف يوما فى جماعتهم ليقص عليهم كيف حاول ادريس أن يرشوه بعشرة جنيهات والله يا أولادى عشرة جنيهات وماذا لو تزوج ادريس بأمينة ولكن الشيخ أمين انه يرفض الرشوة فى سبيل أن يقول الحق والحق أن أمينة مشئومة .

وفى صباح يوم لم يعرف أهل القرية ماذا حدث ليلتها والشيخ عبد الصمد فى خلوته يقرأ الادعية وعدة الاحجبة عن يمين والدواة والقرطاس عن شمال . قال لقد

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام » • وصلى الناس وسلموا على سيد المرسلين• « انه يأمرنا جميعا بأن نذهب الى البلدة الجديدة • انها مشئومة ولـكن هذا هو مصيركم فقد نصلى هناك فيغفر لنا رب السماوات والارض• ان فى غرق القرية التى عاشت آلاف الاعوام عطشى لحكمة لا يعلم سرها الا رب السماوات » •

وصلى القوم وبعد أسابيع بدأت الرحلة • وسارت القافلة تودع الشمس كل مساء وتستقبلها كل صباح • رحلة طويلة حزينة على رأسها عبد الصمد واجما حزينا وفى ذيلها أمينة مجذوبة لا تعى شيئا • وكان أحمد وعبد العزيز شابين وقال أحمد انا أكره الشيخ وقال عبد العزيز اخفض صوتك واستغفر ربك • أنه ولى من أولياء الله • الم يتنبأ بشؤم امينة تعسة بسطاويسى وادريس أو عسر اذا ما تزوج بالمجذوبة • وقال أحمد « نعم » • ثم قال « ولكن أمينة لم تكن هكذا يوم خطبها الخطاب » • وقال عبد العزيز : « لقد عرف الشيخ الغيب انه أمين اتذكر رشوة الجنيهات العشرة » • وقال أحمد « لا أدرى أنا لا أطمئن اليه ولا أدرى أيضا لماذا أحب امينة بل لا أدرى لماذا أنا فرح بالبلدة الجديدة » •

واستقرت القرية فى البلد الجديد • مضت أيام فى قلق واضطراب وحركات كبار • موظفون ومشرفون ووجوه باسمة تلقاهم وكلمات جميلة يستمعون اليها وبشائر مستقبل قريب تلوح هناك فى أفق لا يرونه • وبدت الجدران أول الامر صماء قاسية خانقة وقليلا قليلا زانتها أطباق الخوص وعقود الخرز والقناديل الزاهية الالوان • وأخذت الحياة تنتظم وتنتظم وتعود القوم أن يذهبوا فى مشاكلهم الى بعض رجال يسكنون بيتا وسط البلدة يقدمون لهم غذاء ودواء وبذورا يبذرون بها الارض • وجاء وجه ذات يوم وجه فتاة تلبس ثوبا أبيض فتاة بيضاء سمحة تحنو على الاطفال تغسل عيونهم وتشفى أمراضهم وصادقها الامهات • ورجال البندر والست عفيفة الممرضة يملأون فراغ الشكوى فيقل ذهابهم الى الشيخ عبد الصمد وفجأة فى يوم جمعة أعلن الناس أن الشيخ عبد الصمد قد فر فى ظلام الليل • قال قوم لقد رفع الى السماء وقال قوم لقد شوهد يعدو فى الطريق الى الصحراء وقال رجال البندر مالكم وله وسيعود اذا كان حيا• وفرح أحمد وامتلأ

عبد العزيز زهـوا وتفاخر بأنه هو أيضـا لم يكن يحب الشيخ • وبدأ الناس ينظرون الى أمينة • وحملت أمينة الى الست عفيفة وبعد أن استأذنت الوالد الشيخ رحلت أمينة الى مستشفى العاصمة •

وتحدث الحياة الهادئة نبوءة الشيخ عبد الصمد أن البلدة مبروكة انها ليست مشئومة • صحيح أن هنـاك حنينا قويا نحو القرية الصغيرة هناك، ولكن أين الحياة هنا منها هناك ثم أليس النيل سيغرقها فكيف اذن يعودون• وبدأت ألوان جديدة من الافراح تظهر ان شـباب القرية لن يرحل الى العواصم انه سيمكث هنا ليزرع وليعمل فى المصنع البعيد هناك ليعود آخر النهار • وعاد الى أهـل القرية من الشيوخ شبابهم لما رأوا أبناءهم الى جوارهم • ان الدوعة لوعة فراق الابناء ستغرق هنـاك •• هناك مع النيل • والبلدة لن تحرم من شبابها لن تحرم من عصب حياتها •

وذات صباح صاح فى الناس أحمد الشاب الجميل ان أمينـة يا قومى قد عادت لقد شفيت وسأتزوجهـا • ووجم القوم وصاح شيخ « مشئومة يا ولدى » وقال أحمد سأتزوجها وبمال الشيخ عبد الصمد نفسه • وصاح القوم رحمه الله كيف تجرؤ على القول بأن الشـيخ عبد الصمد يملك مالا • انه ولى الله وأولياء الله فقراء لانهم أغنيـاء بايمانهم وقال أحمد نعم بمال الشيخ الذى فر منكم ذات ليل • الشيخ الذى تركككم ليعود الى القرية حيث كان قد دفن المال فى بيته ولكن عملية اعداد الارض لتستقبل الماء سبقته • وهـذه بعض أوراق الشيخ عبد الصمد وهـذا هو المبلغ الذى وجد فيها لقـد مات الشيخ على مشـارف القرية وهو فى طريقـه الى كنزه وحمله بنـاة السد كما يحملون الصخور والقوه بعيدا فى حفرة من تراب • لقد كان هو أيضا جبلا صخريا عاتيا يعوق ماء الحياة ماء الفكر عن عقولكم • لقد هدمنا الجبل وفجرنا النهر لقـد هدمنا عبد الصمد واتحنا الحياة لأمينة •